رؤى " كانت " العلمية

د. افراح لطفي عبد الله

جامعة بغداد – كلية الاداب – قسم الفلسفة

هذا البحث هو محاولة لتقصي رؤى " كانت" العلمية ضمن كتابه " نقد العقل المجرد" والتي يمكن حصرها في موضوعين هما : معمارية العلم وبنية العناصر .

لقد استخدم " كانت " مصطلح العلم بمعنيين . الاول يتماشى مع طروحات علم الفيزياء في العصر الحديث وهو موضوع بنية العناصر ، والثاني كبناء اي كفكرة تلم اجزائها لتكون وحدة وهو موضوع معمارية العلم ، والذي منه سنجد اشارة على حضور الفكر الكانتي في عصرنا الحالي .

بنية العلم :

مع " كانت" وضمن موضوع معمارية العلم يمكن الحديث بسهولة عن بنية للعلم ،حيث قدم " كانت" في هذا المجال مخططاً يدخل القارئ شاء ام أبى الى تصور للعلم عام عندما جعله يتمفصل ليتخذ روابط وخطوط واتجاهات عديدة ، وهومخطط ان كان قد احتاجه لمعالجة الفلسفة المتعالية فانه قد وضع في باله انه لا يمكن معالجتها إلا على انها علم ،ولكي تكون كذلك وضع "كانت" اصولاً لتوحيد متفرقات هذه الفلسفة في انساق تربطها علاقات ضرورية ومن ثم ترابط هذه الانساق في بنية . ان هذا الكلام لابد انه لا يتركنا دون ان يضعنا ازاء مخطط من مخططات فلسفة العلم بحيث اننا لو طبقناه على العلم الفيزياوي لاستطعنا ان نؤسس بنية للعلم .ولو كان الامر بهذا الشكل فسنكون قريبين جداً الى ما طرحه فلاسفة العلم المعاصرين حول البنية سيما في فلسفة تاريخ العلم .ولنكن حريصين باننا نقول البنى وليس فلسفة تاريخ العلم ككل التي لم تثر اهتمام " كانت" بوضوح رغم اهتمامه بالمنهج النقدي ،مع هذا لو كان " كانت" قد دعى اهمية تطبيق مخططه على العالم الفيزياوي لكان قد سبق الكثيرين في الاشارة الى اهمية ان يكون للعلم بنية ويمكننا ان نستأنف ونقول من دون مبالغة انه كان قد اسس بمعنى واضح لما يسمى بفلسفة العلم .

الرؤية الاولى : معمارية العلم :

" كانت" وفي صميم تشكيله المذهب الفلسفي كان محصناً علمياً ، اي كان على دراية كاملة بما طرحته علوم الرياضيات والفيزياء، وعلى دراية ايضاً في انه اذا استطاعت هذه الطروحات ان

تخطو خطوات هذه العلوم فانها ستكون قريبة جداً الى الدقة والعلمية . ولهذا نجده قد طرح في مدخل كتابه النقد عملية تمثل الفلسفة المتعالية على انها "فكرة (من علم) فقط "[١] واذا حللنا هذه الجملة سنجد ان هنالك مفهومين لهما شأن كبير في تأسيس تصور "كانت" عن المعمارية وهما : الفكرة والعلم .

وكان " كانت" على علم باهمية هذين المفهومين ، لان الفكرة هي التي توجب على العقل المجرد ابتداءاً من ان يتبع في سبيلها " ووفقاً لمبادئ ثابتة مخططاً معمارياً (بنائياً) يضمن اكتمال ورسوخ جميع الاجزاء التي يتألف منها البناء – قائلاً – (انها منهاج لكل مبادئ العقل المجرد) [٢] فلولا الفكرة لا يمكن للمعمارية ان تنتظم هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فانه قد خص فلسفته المتعالية كلها على انها علم وهذا يتضح من خلال تقديمه لمخطط هذه الفلسفة يقول "اذا اردنا ان نقوم منهاجياً بتقسيم سديد لعلمنا فيجب ان يحتوي اولاً على قاعدة العناصر وثانياً على طريقة (Method) العقل المجرد وسيكون لكل من هذين القسمين الرئيسيين اقسامه الثانوية الخاصة به"[٣] ولم يكن هذا التقسيم او التخطيط الا الهيكلية او المعمارية للعقل المجرد .

ولتفسير هذا علينا ان نفصل بالمصطلحات التي نحتها " كانت" . فلو اتينا على مصطلح المعمارية سنجد ان " كانت" قد جعله ابتداءاً أكثر من دليل على كلمة بناء ، وليس بناء اخر غير بناء العلم يقول ان كلمة معمارية تعني " فن بناء الانساق – ففن بناء الانساق اذن هو ما عبر عنه " كانت" بالمعمارية بالاضافة الى اننا ازاء نحت لمفهوم آخر غير المعمارية وهو النسق هذا من جهة ومن جهة اخرى فان " كانت" قد اراد ومن خلال هذه الانساق ان يربط بين المعمارية والعلم حيث يستأنف ويقول – ان الوحدة النسقية هي التي ترتفع بالمعرفة العادية الى مرتبة العلم ، اي انها تبدل مجموعاً من المعرفة الى نسق "[٤] فما موجود اذن هو معرفة عادية وهذه لكي ترتقي الى مرتبة العلم يجب أن تتألف في نسق ، فالقدرة على تأليف نسق من المعرفة العادية يرفعها الى مرتبة المعرفة العلمية . وبهذا يكون النسق موازياً لمرتبة العلم والذي يتبع ان تكون المعمارية التي تتكون من انساق مرتبطة بالعلم سيما وان " كانت" قد شخصها ابتداءاً على انها " نظرية لما يكون بالفعل علمياً في معرفتنا"[٥].

ان مهمة بناء العلم قد اوكلها " كانت" الى العقل اولاً ، فهو لما وجد ان المعرفة العادية هي مشوشة رأى ان تنظيمها يحتاج الى توجيه العقل وادارته . فالعقل وحده من يستطيع ان يجعل من المعرفة نسقاً والنسق بدوره يدعم العقل يقول ان المعرفة عندما تكون نسقاً فانها " تدعم مواضيع العقل وترقيها"[٦] ودور العقل يظهر اكثر عندما تحدث " كانت" عن اللبنة الاولى لبنية العلم او المعمارية وهي الفكرة التي من اهم مميزاتها انها قبلية وهذا يمهد الى ان ما هو قبلي فهو كامن في العقل .و عليه يتحدد نسب الوحدة المعمارية وهو الفكرة القبلية حيث ان كل نسق يبدأ بفكرة وقد ميز " كانت" الفكرة القبلية عن الفكرة التقنية بقوله ان " المنهج الذي لم يجر تصميمه وفقاً لفكرة اي وفقاً

للهدف (القبلي) للعقل بل جرى تصميمه تُجريبياً فقط وطبقاً للاهداف التصادفية (التي لا نستطيع ان نعين عددها) ان منهجاً كهذا يعطي وحدة تقنية .. لكن المنهج الذي ينشأ عن فكرة فقط (حيث يملي العقل الاهداف(القبلية) ولا ينتظرها من الخبرة يقدم وحدة معمارية "(٧) ويؤكد ذلك مرة اخرى بقوله ان العلم لا نستطيع ان " نبتكره بصورة تقنية ووفقاً لتشابه شتيت اجزائه او الاستعمال التصادفي للمعرفة بصورة حسية ... بل انما نتبكره بصورة معمارية فقط بوصفه مرتكزاً على قرابة اجزائه واعتماد هذه الاجزاء على هدف واحد اسمي وباطني والذي بواسطته وحده يصبح الكل الكامل ممكناً"(٨) والكل الكامل هو المعنى العام العلمي للعقل الذي يحتوي على الغاية وايضاً على شكل الكل الكامل المطابق لها .

فاللبنة الاولى للوحدة المعمارية هي الفكرة وهذه الفكرة هي قبلية مما يستنتج انها من نتاج العقل ،ومن السهل هنا تشبيه الفكرة بالفرض كنقطة انطلاق لبناء العلم مع فلاسفة العلم المعاصرين . فقوله انه " لا يستطيع اي انسان ان يبني علماً ما لم يستطع تركيزه على فكرة ما "(٩) يجعله قريباً من بوبر الذي جعل " المشكلة هي ما يبدأ به العالم وليس الملاحظة الخالصة .... فالعالم يحتاج مسبقاً الى نظرية يلاحظ على اساسها "(١٠). ولكن اختلاف "كانت" عن بوبر هو انه يجعل الفكرة كالبذرة تخبو " في العقل وتكون جميع اجزائها لا تزال مغلفة وبالكاد قابلة للتميز حتى تحت المشاهد المجهرية"(١١) ولهذا السبب فان التجربة لا يمكنها ان تمدنا بصورة مطابقة جداً للفكرة فأي من العلماء اذا اراد ان يبني علماً فانه " من النادر جداً ان يأتي في اكماله لهذا العلم واحكامه المنهج لا بل حتى التعريف الذي يعطيه او يضعه في بداية علمه منطبقاً على فكرته "(١٢). فالتطبيق معه اذن لا يمكنه ان يعلن عن خبايا وتفصيلات الفكرة القبلية مما يجعل مبدعي العلوم يدورون بغموض حول الفكرة دون ان يدركوها بوضوح مما يجعلهم بنظره – اي"كانت" –يفشلون في تعيين محتويات علمهم الاصلية وتمفصله (وحدته النسقية) وحدوده تعييناً صحيحاً وربما نجد هذا قريب الى فكرة فلاسفة العلم نحو ان الابحاث العلمية لا تستهدف المعرفة المطلقة سيما بعد ان رأوا قدرة المستقبل على تكذيب السابق .

اذن الفكرة هي اللبنة الاولى للوحدة المعمارية فمنها تحدث الاتساق والمخطط ثم الوحدة المعمارية . واذا سألنا كيف يجيبنا "كانت" "بان الاتساق تنمو وتتطور كالديدان من خلال نوع من (Generatio Aequivoco) وبواسطة مجموع من معان عديدة وتكون هذه الاتساق في البداية غير كاملة ومن ثم تبلغ تدريجياً الكمال "(١٣) ويؤكد "كانت"ان لكل نسق منهجه الخاص الذي ينبع من الفكرة او البذرة الاصلية في العقل ثم يتطور دون ان يتمفصل كل واحد منها بل نجد انها جميعاً تقوم بالاتحاد "سداداً معاً في نسق المعرفة البشرية وكاعضاء من كل كامل وان تقبل بنظام معماري ينتظم كل المعرفة البشرية"(١٤). فمن الحق القول اذن ان المعرفة البشرية تنتظم من الفكرة . وان هذه الفكرة هي قبلية بما في ذلك تمفصلاتها الى نسق ووحدة معمارية وبالتالي فان صفة القبلية هذه تجعل

من الممكن وصف المعرفة على انها عقلية ولهذا يقول "كانت" " ان الرياضي وطالب الطبيعة والمنطق ومهما يبلغ الاولان من ايغال في المعرفة العقلية ويبلغ الاخير من عمق في المعرفة الفلسفية فانهم جميعاً فنانو عقل فقط "[١٥] وهذا ان عنى شيء فانه يعني تركيز "كانت" على اهمية دور العقل في تأسيس المعرفة ولكن من الجدير ذكره هنا ان "كانت" لم يكتفي بالعقل لصنع المعرفة لانه قد اكد ايضاً على اهمية التجربة الى جانب العقل في تمام عملية المعرفة يقول " ان كل معرفتنا تبدأ بالخبرة وهذا امر لا شك فيه ،لكن على الرغم من ان كل معرفتنا تبدأ بالخبرة لكن هذا الامر لا يستتبع نشوءها من الخبرة وذلك لانه من الممكن تماماً ان تكون حتى خبرتنا التجريبية مركباً يتألف من ذاك الذي نتلقاه من خلال الانطباعات ومن ذاك الذي تقدمه ملكة معرفتنا الخاصة بالذات... ولهذا سيكون السؤال – عما اذا "كانت" توجد معرفة مستقلة عن الخبرة وحتى عن جميع انطباعات الحواس ؟ وان معرفة كهذه تسمى (القبلية) وهي مميزة عن التجريبية التي تكون لها منابع (بعدية) "[١٦] .

بنية العناصر :

عاصر"كانت" التقدم الهائل سواء في الفيزياء او الرياضيات كما قلنا ، وقد وقف امام الاكتشافات الباهرة لتلك العلوم متسائلاً ان كان يمكن ان تصبح الميتافيزيقا علماً " قائماً على اسس يقينية ويتقدم باستمرار كما هو الشأن في الفيزياء والفلك والرياضيات "[١٧] وكان "كانت" من اجل تقديم الاجابة على هذا التساؤل ان تنبه الى معالجة مسألة مهمة وهي العقل باعتباره هو وسيلة المعرفة ، ولهذا توجهت اجابته نحو معرفة "الوسائل التي يستخدمها العقل من اجل تحصيل المعرفة ، وكيف يمارس العقل منهجية التحصيل لكي يصادق على الصفة العلمية لهذه المعارف"[١٨] وعلى هذا الاساس وضع كتابه " نقد العقل لمجرد " ولم يقف "كانت" في هذا الكتاب عند هذا الحد بل حاول ومن خلال بحثه في تفصيلات العقل ان يتوصل الى اجابة اكثر علمية وذلك من خلال طرحه مقياساً يميز فيه ما هو علمي عن ما هو غير علمي وهو مقياس القضايا التركيبية القبلية ، هذا المقياس كان قد اسسه من خلال نقده لطروحات التيارين العقلي والتجريبي الذي توصل من خلاله الى امكانية اختبار مجالات المعرفة واستخدم "كانت" مقياسه هذا لاختبار ثلاثة ميادين وهي : الرياضيات والفيزياء والميتافيزيقا . "كانت" وهو في عملية اختبار هذه الميادين وفق مقياسه العلمي كان قد وضع نظرية في المعرفة خص بها مجال (الفينومينا) او الاشياء لذاتها على انها "موضوع العلم "[١٩] وميزها عن النومينا او الاشياء في ذاتها على انها الميتافيزيقا .

وما دام موضوعنا البحث عن عمليات "كانت" فسنختص بتفصيلاته حول الفينومينا او الظواهر ونستنطق نظريته في المعرفة وذلك بهدف ابراز رؤى علمية اخرى لـ"كانت" .

الرؤية الثانية : الحدس طريق للمعرفة :

اعتبر "كانت" ملكة الاحساس وهي العنصر الاول من فصل الجمالية المتعالية ، اعتبرها الاصل في المعرفة " فالمواضيع تعطى لنا بواسطة ملكة الاحساس"(٢٠) ومن دون هذه الملكة لا نستطيع ان نحصل على المواضيع ،من هذه العبارات اسس "كانت" نقطة الانطلاق نحو بناء معرفة حدسية . فهو في البدء صاغ حل لاشكالية طرحها عن كيفية تنظيم كثرة الاحساسات المستلمة من هذه الملكة، واستنبط الحل بالقول ان ما ينتظم ملكة الاحساس هما صورتان قبليتان تتمثلان بالزمان والمكان ، المكان ممثلاً بالصورة الخارجية للحس اما الزمان فيمثل الصورة الداخلية له .

وقد توصل الى ان الخاصية الاساسية التي تتمتع بها صورتا الزمان والمكان هي خاصية علمية رياضية ربما لكونه قد استوعب ان هاتين الصورتين عند نيوتن تقومان على رياضيات التفاضل والتكامل اذ انهما " يسمحان بالعقل التفاضلي التكاملي بوصفهما الارضية الوحيدة الصالحة للاتصال الرياضي جوهر حساب اللامتناهي"(٢١) هذا من جهة ومن جهة اخرى فان محاولته لتأسيس هذه المعرفة على الحدس مبنية على اساس ان الرياضيات والهندسة لم تأتيا من تراكم الملاحظات بل انها ناتجة عن حدسنا " فالهندسة علم يقوم على حدس المكان والحساب علم يقوم على حدس الزمان فانه من الضروري ان يكون الزمان والمكان حدساً قبلياً مما يجعل منهما صورتين قبليتين للحساسية ... المكان والزمان اذن صورتان قبليتان للحدوس التجريبية وبعبارة اخرى انهما صورتان اوليتان ذاتيتان تخلعهما الحساسية على المدركات الحسية وبواسطتهما يتم ترتيب تلك المدركات في علاقة مكانية وزمانية "(٢٢) هذا الكلام ان اشار من جهة الى اهمية ربط العلوم الرياضية والهندسية بالزمان والمكان فانه قد اشار من جهة اخرى الىمسألة اساسية عند"كانت" وهي ان الرياضيات ليست تحليلية فقط كما ادعى العقليون بل انها تجمع بين التحليل والتركيب . الامر الذي سهل تطبيق المقياس العلمي عليها بمعنى ان قضاياها قبلية تركيبية الامر الذي يدخلها في حيز العلم ويميزها عن اللاعلم .

النتيجة اولاً ان الزمان والمكان هما الصورتان القبليتان اللتان تنبع منهما المعرفة الرياضية فمنهما " نستطيع ان نغترف مدلاكات تركيبية بدئية (قبلية) متنوعة متعددة. وتقدم لنا الرياضيات المجردة مثلاً رائعاً في حال مدركاتنا للفراغ وعلاقاته المتنوعة المتعددة. ولما كان كلاهما شكلين مجردين للزكانة (الحدس) الحسية فانهما يجعلان الفرضيات او القضايا التركيبية امراً ممكناً بدئية (قبلياً)" (٢٣) "كانت" هنا قد اثبت ان المعرفة الرياضية ممكنة من خلال ملكة الاحساس ومن ثم اثبت انها علم لانها تخضع لمقياس القضية التركيبية القبلية .

ثانياً ان طريق المعرفة الرياضية والهندسية هو الحدس ، فاذا كنا نعرف ان القضايا الخاصة بمثلث مثلاً كعدد الزوايا والخط المستقيم هي قضايا تركيبية تقوم على حدس فيجب ان نعرف ايضاً ان هذا الحدس هو ليس تجريبياً " لان القضايا الرياضية المذكورة يقينية ومطلقة بمعنى ان انكارها يؤدي

الى تناقض ولان عالم التجربة الحسية يقتصر ... على ان يقدم امامنا الوقائع بعضها بجاور بعض وبالتالي فهو لا يتضمن أي ضرورة أو يقين ... وإذن فإن الحدس الذي تقوم عليه القضايا الرياضية حدس قبلي خالص وبالتالي فان مصدر يقينها وضرورتها هو العقل نفسه اي قدراته القبلية "(٢٤).

الرؤية الثالثة : مخططات الفهم :

لم يكن علم الرياضيات فقد من جذب نظر "كانت" ،بل وكما نوهنا سابقاً فان علم الفيزياء كان له اسهام كبير في تأسيس وجهة نظره العلمية ،وبه وجد طريق آخر للمعرفة غير الحدس وهو طريق المعاني العامة، اي طريق المعرفة لملكة الفهم ، يقول "كانت" " لا يوجد ما عدا الزكانة (الحدس) اي نوع اخر من المعرفة الا بواسطة المعاني العامة لذلك يجب ان تكون المعرفة لكل فهم ... ثمرة للمعاني العامة لا حدسية بل الاستطرادية "(٢٥).

وقد خص "كانت" العنصر الثاني اي ملكة الفهم التي هي "ملكة غير حسية للمعرفة "(٢٦) نقول خصها لبحث قضايا الفيزياء والتحقق من عمليتها او بالاحرى للحصول على المعرفة الفيزيائية . لكن لو تفحصنا الامر جيداً لوجدنا ان طريق المعرفة لملكة الفهم لا تشكله المعاني العامة فقط بل نجد تشابكاً لثلاثة اركان اساسية وهي : المعاني العامة والتفكير والاحكام .

وهذا نلمحه من خلال تفسيره لهذا الطريق حيث نجده وبتأسيسه لطريق المعرفة هذا لم يستطع تجاوز تداخل بين هذه الاركان الثلاث والاكثر من هذا انه قد ادخل ركناً رابعاً لاكمال هذا الطريق وهو المقولات .

يقول ،ان ملكة الفهم "هي ملكة التفكير وان التفكير هو المعرفة بواسطة المعاني العامة"(٢٧) ومن ثم يعود ويقول ان الفائدة " الوحيدة التي يستطيع الفهم ان يجتنيها من هذه المعاني العامة هي ان يكون منها الاحكام "(٢٨) ، قول "كانت" هذا مبني على اساس ان وظيفة المعاني العامة تقوم على ترتيب التصورات المختلفة تحت تصور واحد مشترك وهذا التصور هو الحكم .

أي امكانية اختزال جميع اعمال الفهم الى احكام وهو ما جعل "كانت" يعرف " الفهم بانه ملكة الحكم "(٢٩) ،حيث جعل الحكم معنى عام ينطبق على الكثير ويدرك بين الكثير تصوراً واحداً مفرداً ينسب مباشرة الى الموضوع .الكلام السابق ان فسر لنا صياغة الاحكام فانه قد وضح اضافة لذلك التشابك والتداخل القائم بين ما اسميناها الاركان الثلاثة لتأسيس الاحكام . وكما قلنا ان "كانت" لم يكتفِ بهذا بل ادخل ركناً اساسياً رابعاً وهو المقولات التي هي "ايضاً معاني عامة اساسية نفكر بواسطتها بالمواضيع بصورة عامة وبالنسبة للظاهرات ولذلك تمتلك بديئة (قبلياً) صحة موضوعية"(٣٠) . وعليه ستكون ملكة الحكم هي نبع المبادئ مشدداً على انه " بدون مبادئ كهذه لن تصبح ابداً الظاهرات مواضيع متطابقة والمعرفة وحتى قوانين الطبيعة اذا ما اعتبرناها على انها

مبادئ للاستعمال التجريبي للفهم تحمل معها طبع الضرورة وهكذا تقودنا الى الافتراض انها ترتكز على اسس صحيحة بدئية (قبلياً) وقبل كل خبرة"[٣١]. وهذا يعني ان هذه المبادئ تتصف بانها احكام تركيبية قبلية. فالمقولات التي هي مدركات عقلية والتي هي ممكنة التطبيق على الادراك الحسي جعلها "كانت" من مقومات الاحكام التركيبية القبلية وبدا اهتمام "كانت" بالمقولات من اجل ان يجعل الخبرة ممكنة حيث رأى ان صورة الاحكام الموضوعية التجريبية او تراكيبها يمثل لمقولات.

وقد حدد "كانت" لكل من الاحكام والمقولات صور اربع هي الكم والكيف والاضافة والجهة ووضع تحت كل منها ثلاث تفرعات اخرى مما جعل عددها في النهاية اثنتي عشر هي بمثابة مخططات للفهم .

واهم هذه المقولات هي مقولة السببية لما تحمله من اشارة الى تأسيس تفكير علمي يقوم على فهم الظاهرات وفق روابط ضرورية تناسب ما تتمتع به القوانين العلمية من دقة رياضية ويقين علمي .

ومن ناحية اخرى فان ربط "كانت" التفكير بواسطة المقولات مع ما هو متعدد جعل القول بان استخدامنا " للمقولات حين نفكر في موضوعات الواقع وبان استعمالها هو الذي يؤلف الواقع الموضوعي هما على ما يبدو اهم ما أسهم به كانت في نظرية المعرفة وفلسفة العلم "[٣٢] ومن الاهمية الان ان نتعرف علىتفصيلات مبسطة لمبدأ السببية .

جعل "كانت" كل الخبرة الممكنة اي كل المعرفة الموضوعية بالظاهرات "تعتمد على مبدأ السبب الكافي "[٣٣] وعليه يكون مبدأ العلاقة السببية صحيح بالنسبة لجميع مواضيع الخبرة بل هو اساس امكانية خبرة كهذه . وذلك لسببين الاول انه قبلي مما يمنحه الصدق والثاني امكانية تسليطه من قبل عقلنا على الخبرة .

ومن ناحية اخرى يؤكد " كانت " على وجود شرط قبلي لامكانية تعيين مستمر لمركز جميع الظاهرات وهذا الشرط هو الفهم وهذا لا يتم الا "بواسطة سلسلة من العلل والمعلولات بحيث تنتج الاولى حتماً وجود الثانية .. الامر الذي جعل .. المعرفة التجريبية بعلاقات الزمان صحيحة بالنسبة لجميع الازمان (عمومية) ولذلك صحيحة صحة موضوعية"[٣٤] فما تعبر عنه العلاقات بين الظاهرات من ضرورة انما يكون وفقاً لقانون السببية بل ان كل التبدلات في العالم تخضع لهذا المبدأ اي لقانون وجود ضروري الذي بدونه لا يوجد شيء بوصفه الطبيعة . الامر الذي يسهل تفسير القوانين العلمية. فعقلنا اذن يمتلك مبدأ السببية سلفاً والظواهر تعبر عن علاقات ضرورية فمن الممكن اذن ان نسير في عملية كشفنا للقوانين بطريق مستقيم . وهذا ان وضح شيء فانه يوضح الى اي مدى يمكن لملكة الفهم ان تمدنا بوسائل تحقيق طريق للمعرفة سليم .

ولكن ما يؤكد عليه "كانت" هو ان ملكة الحكم لا توجد عند الجميع لانها " موهبة خاصة لا يمكن بنا ان نتعلمها بل يتوجب علينا ان نمارسها"(٣٥) وفي هذا القول نجد الكثير من الصحة فالكثير قبل نيوتن وبعده رأوا سقوط التفاحة دون الوقوف عندها لكن عقل نيوتن لم يقف عندها فقط بل فسرها فيزيائياً ودونها رياضياً من هنا يكون العقل الفيزيائي هو فقط من يستطيع التقاط الظواهر الفيزيائية كما هو الحال في العقل الرياضي والعقل الكيميائي ...ألخ . في التقاطهما الظواهر الخاصة بمجالهما . وهوما لا يستطيعه العقل العادي .بل حتى التعليم او التمرين لا يفيان في صنع عقل علمي ما لم يكن هو مهيئاً سلفاً للنظر العلمي يقول "كانت" " انه بالرغم من ان المعلم قد يقدم كما لو أنه كان تطعيماً الكثير من القواعد المقتبسة من خبرة الاخرين لكن ملكة استعمال هذه القواعد بشكل صحيح يجب ان تخص التلميذ نفسه وبدون هذه الملكة لاتوجد اية سنة بمامن من سوء الاستعمال...فملكة الحكم هي ما نسميه بفطانتنا التي لا يمكن ان يعالج غيابها تدريس او تعليم "(٣٦) ، وهذا قريب من قول بفردج الذي كتب في البحث العلمي المعاصر " ان العبقري النادر الذي يتألق بموهبة فذة في البحث العلمي لن يستفيد من التدرب على طريق البحث "(٣٧) وواضح ان "كانت" قد ميز بين العقل العلمي والعقل غير العلمي وامتلك الامكانية على التفصيل بالعقل العلمي وكيفية تحقيق العلم او المعرفة من خلاله الامر الذي يبدو كانت من خلاله فيلسوف علم بجدارة .

الرؤية الرابعة : نظرية المعرفة :

من كل ما سبق واضح بان "كانت" قد جعل معرفتنا نابعة مما اسماه نبعين جوهريين ، الاول يتلقى التصورات لتقبلية الانطباعات وهذا يعطي لنا الموضوع،والثاني فهو القدرة على معرفة موضوع ما بواسطة هذه التصورات (تلقائية المعاني العامة) ،اذ ننتقل هنا من التلقي المباشر للموضوع (ملكة الاحساس) الىالتفكير به (ملكة الفهم). النتيجة التي يصل اليها "كانت" تقول، ان كل عناصر معرفتنا تتشكل من ملكتي الحدس والمعاني العامة وهما تتمتعان بنفس الاهمية في تصنيع المعرفة بحيث لا يمكن للمعرفة ان تتم دون احداهما كما وانه لا يمكن المفاضلة بينهما يقول "كانت" " بدون الحساسية لايمكن ان تعطانا المواضيع وبدون الفهم لا نستطيع ان نفكر بها فالافكار بدون محتويات هي فارغة والزكانات (الحدوس) بدون معان هي عمياء"(٣٨) وقد جعل "كانت" هذه المعرفة اي التي تُصنع من هاتين الملكتين جعلها من اختصاص ملكة الفهم ، لكن صنع المعرفة هنا لا يتم بسهولة لان التصورات في البدء تكون متعددة ومشوشة فتحتاج الى توحيد وترتيب . ولكي يحل "كانت" هذا التعقيد طرح طريقاً لتوحيدها وترتيبها وسماه (بالتركيب) وقد جعل وظيفة اساسية من وظائف الفهم لاهميته في صياغة المعرفة يقول " انني افهم بالتركيب ... عمل ترتيب التصورات المختلفة وعمل ادراك ما هو متعدد فيها تحت شكل واحد من المعرفة ، فالمعرفة تنتج اولاً بواسطة تركيب ما هو متعدد (أعطي بصورة تجريبية ام بدئية (قبلية) وهذه المعرفة قد تكون في البدء (فجة) خاماً مشوشة بحاجة الى تحليل ولكن التركيب هو فعلاً الذي يجمع عناصر المعرفة ويوحدها الى حد معين"(٣٩) فالتركيب اذن

اهمية كبيرة للحد من تشويش المعرفة ذلك من خلال "ربط ما هو متعدد في الزكانة (الحدوس) المجردة .. بغية انتاج معرفة به"(٤٠) ومن ثم فان ما يشكل الخبرة ان هو الا الوحدة التركيبية للمدركات الحسية ،فالخبرة هي اذن " الوحدة التركيبة للظاهرات وفقاً للمعاني العامة"(٤١) فلصنع المعرفة انما نستعين بالتركيب للتوصل من تلقي الاحساسات الى المعاني العامة.

صفات عقلنا العلمية :

كان لمخططات الفهم توجه حقيقي نحو تحديد مسؤولية العقل عن المعرفة، ففي البدء يمكننا ان نؤكد مع "كانت" ان للعقل قدرة اختيارية ،فلولا هذه القدرة لاربكته الاحساسات الكثيرة، وانه بالاختيار انما نعين قوانين وانظمة معينة تتلائم مع ادراكاتنا الحسية ، والعملية الاختيارية ربما تتوضح من وصف العقل البشري كغربال ولعل " الغرابيل " (Sieves) التي نسبها "كانت" الى العقل البشري يبلغ عددها اربعة عشرة يأتي منها اولاً اثنان اسماهما صورتا الادراك وهما المكان والزمان ثم تأتي الاثنتا عشر الاخرى التي وصفها بصور الفهم برغم ان "كانت" يفضل تسميتها بالتصورات الخالصة للفهم او المقولات"(٤٢).

ان القدرة الاختيارية لعقلنا هذه قد تجعل من ناحية اخرى الظاهرات ليست اشياء بذاتها بل " هي لعب تقوم به تصوراتنا التي هي جميعاً في النهاية تعايين فقد للحس الباطني"(٤٣) وهذا يعني اننا نحن من ننتظم المعرفة بادراكنا ، فالطبيعة هي نتيجة تصوراتنا، نتيجة لعبنا " فاذا نظرنا الى شيء فاننا نراه بطريقة تحددها صفات عقولنا"(٤٤) ، بمعنى ان الطبيعة بنظامها وقوانينها في معظمها هي نتاج انشطة عقلنا التمثيلية والتنظيمية ومن هنا تكون لعقلنا القدرة على فرض قوانينه على الطبيعة وليس استلالها منها وهو ما اطلق عليه "كانت" اسم ثورته الكوبرنيقية .

النتيجة اذا ما اردنا ان نؤسس معرفة علمية مضبوطة كنظرية نيوتن علينا " ان نتخلى عن الرؤية القائلة اننا ملاحظون سلبيون ننتظر من الطبيعة ان تطبع انتظامها علينا انما علينا ان نتبنى الرؤية باننا اذ نستوعب بيانات احساساتنا نقوم فعلاً بفرض نظام عقلنا وقوانينه علينا ان الكون يحمل بصمات عقولنا"(٤٥) وقد فهم بوبر اهمية كلام "كانت" هذا وتأثيره على علماء وفلاسفة عصرنا الحديث حيث يقول "ان تأكيد "كانت" على الدور الذي يلعبه المراقب الباحث المنظر تمكن من خلق انطباع يتعذر محوه : خلق مناخاً كانتياً من الفكر كان من الصعب دونه ان تظهر نظريات اينشتين او بوهر ولقد نقول ان ادنجتون كان كانتياً في بعض النواحي اكثر من كانت نفسه .بل ومن الممكن ان يقبل حتى من لا يستطيعون تتبع "كانت" على طول طريقه (مثلي - يقول بوبر) ان يقبلوا رؤيته بان المجرب يجب ان ينتظر حتى تقبل الطبيعة ان تكشف اسرارها انما عليه ان يطلب منها ذلك عليه ان يستجوب الطبيعة في ضوء شكوكه وحدسه ونظرياته والهاماته. هنا في رأيي- اي بوبر- نقبة فلسفية مدهشة انها تجعل من الممكن ان ننظر الى العلم نظرياً كان او تجريبياً على انه ابداع بشري

وان ننظر الى تاريخه على انه جزء من تاريخ الافكار على نفس مستوى تاريخ الفن او الادب"[٤٦] هكذا اذن اوكل "كانت" للعقل القدرة على الابداع والكشف كيف لا وانه اوجب علىالعقل ان يتمتع بسمة نقدية بحيث انه قد طرح له في سبيل ذلك طريق النقد منهجاً لا محيد عنه من اجل البحث العلمي يقول " اذا كان هناك من شيء علينا ان ندعوه بالطريقة (المنهج) فيجب ان يكون اجراء وفقاً لمبادئ ... ان الدرب الوحيد التي لاتزال مفتوحة امامنا هي الدرب النقدية"[٤٧] فبالنقد تتأسس المعرفة الصحيحة ولم يتوانى "كانت" ايضاً من استخدام المنهج التجريبي لاسيما في بحوثه في علم السماء في كتابه " نظرية السماء " بتأكيده " على ضرورة القيام بالتجارب والملاحظات للوصول الى الحقائق المتعلقة بالسماء للتحقق من صدقها "[٤٨] وهو هنا متأثر بنيوتن . واخيراً ومن خلال شذرات عقلية "كانت" العلمية التي استعرضناها لاشك اننا نجد انفسنا امام منجم لا يمكن الا ان نقف امامه منقبين لاستخراج بعض من ذهب افكاره .

المصادر والهوامش :

١. "كانت" ، امانويل . " نقد العقل المجرد " ، ترجمة : احمد الشيباني ، دار اليقظة للتأليف والنشر، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص٦٠ .

٢. السابق ، ص٦٠ .

٣. السابق ، ص٦١ .

٤. السابق ، ص ٨٨١ .

٥. السابق ، ص٨٨١.

٦. السابق ، ص٨٨١.

٧. السابق ، ص٨٨٢ .

٨. السابق ، ص٨٨٣.

٩. السابق ، ص٨٨٣ .

١٠. الخولي ، يمنى طريف . " فلسفة العلم في القرن العشرين " ، سلسلة عالم المعرفة (٢٦٤) ، الكويت ، ٢٠٠٠ ، ص١٧٠ .

١١. كانت ،السابق ، ص٨٨٣ .

١٢. السابق ، ص٨٨٣ .

١٣. السابق ، ص٨٨٤ .

١٤. السابق ، ص٨٨٤ .

١٥. السابق ، ص٨٨٨ .

١٦. السابق ، ص٩٤٩ .

١٧. بدوي ،عبد الرحمن. "مانويل كانت "،وكالة المطبوعات ،الكويت، ط١،١٩٧٧، ص١٦٧- ١٦٨.

١٨. شولتز ، اوفي . " كانت " ، ترجمة : د. اسعد رزوق ، سلسلة اعلام الفكر العالمي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٥ ، ط١ ، ص١٣٠ .

١٩. الخولي ،السابق ، ص١٣١ .

٢٠. كانت ، السابق ، ص٦٥ .

٢١. بشتة، عبد القادر . " الابستمولوجيا" ،دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥ ، ص٤٥ .

٢٢. الجابري ، محمد عابد . " مدخل الى فلسفة العلوم "،مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط٥ ، ٢٠٠٢ ، ص١٢٣ .

٢٣. كانت ،السابق ، ص٨٧.

٢٤. الجابري ،السابق ، ص١٢٣ .

٢٥. كانت ،السابق ، ص١١٨ .

٢٦. كانت ،السابق ، ص١١٨ .

٢٧. كانت ،السابق ، ص١١٩ .

٢٨. كانت ،السابق ، ص١١٩ .

٢٩. كانت ،السابق ، ص١١٩ .

٣٠. كانت ،السابق ، ص١٦٢ .

٣١. كانت ،السابق ، ص٢٠٨ .

٣٢. كامل، جلال واخرون : الموسوعة الفلسفية المختصرة " ، دار القلم ، بيروت - لبنان ، مكتبة النهضة ، بغداد ،١٩٨٣ ، ص٣٣٥ .

٣٣. كانت ،السابق ، ص٢٥٠ .

٣٤. كانت ،السابق ، ص٢٥٨.

٣٥. كانت ،السابق ، ص١٨٣ -١٨٤ .

٣٦. كانت ،السابق ، ص١٨٤ .

٣٧. بفردج ، و. أ. ب. " فن البحث العلمي " ، ترجمة: زكريا فهمي ، مراجعة : د. احمد مصطفى احمد ، دار اقرأ ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص٩ .

٣٨. كانت ،السابق ، ص١٠٠ .

٣٩. كانت ،السابق ، ص١٢٨ .

٤٠. كانت ،السابق ، ص١٢٨ .

٤١. كانت ،السابق ، ص١٦١ .

42. Jeans , James " Physics and Philosophy " , Cambridge : At The University Press , New York , 1944 , P. 55 .

٤٣. كانت ،السابق ، ص١٥٤ .

٤٤. فرانك ، فيليب . " فلسفة العلم " ، ترجمة : د. علي علي ناصيف ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ،ط١ ، ١٩٨٣ ، ص٨٥ .

٤٥. بوبر ، كارل ." بحث عن عالم افضل "، ترجمة: د.احمد مستجير ،مكتبة الاسرة ، مهرجان القراءة للجميع ، ١٩٩٩ ، ص١٦٥ .

٤٦. بوبر ، السابق ، ص١٦٥ - ١٦٦ .

٤٧. كانت ،السابق ، ص٩٠٤ .

٤٨. بشتة، عبد القادر. " العقل العلمي في عصر التنوير " ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧ ،ص٥٣ .